المولدية الزيانية في الخطاب المدحي النبوي الجزائري القديم

(قراءة تداولية بين مولدية أبي حمو موسى(791هـ) والثغري(أواخرق8هـ))

تاريخ استلام المقال: 2016/11/17		تاريخ قبول المقال للنشر 2017/03/09

الطالبة جميلة معتوق*

سنة ثالثة دكتوراه– قسم اللغة والأدب العربي

جامعة أدرار– الجزائر

البريد الالكتروني: maatdja@yahoo.com

ملخص المداخلة:

إنّ الجو الذي ألقيت فيه المولديات في تلمسان زمن العصر الزياني يستدعي رعاية نقدية إجرائية، بدءا من الظروف التي أسهمت في انتشارها ومرورا بما ميّز جوّ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وطريقة التحضير له، ثم إنّ اهتمام أبي حمو موسى الزياني بهذه الظاهرة قد أعطى دفعة مثمرة في جمالية الإبداع الفني للمدحة النبوية هناك، فكان من العوامل التي جعلت المديح النبوي ينتشر في هذا العهد ومن المظاهر التي ساعدت على تغيير الوضع.

هاته الجماليات الفنية التي توسلت إليها الإجراءات النقدية على اختلاف صورها وتنوع مناهجها دفعت إلى الكشف عن أسرار جمالية هذا الخطاب الأدبي بكلّ ما فيه من ظروف العملية التخاطبية والتبليغية؛ ولأجل ذلك كانت القراءة التداولية حاضرة لهاته المهمة في قراءة الأسرار الجمالية والفنية للمولدية الزيانية من خلال شعرائها وكذا الاهتمام بالاستعمال اللغوي وفق السياق والمقام، وبتحول فعل القول إلى فعل الإنجاز، ثم إلى فعل التأثير مع المتلقي.

وانطلاقا من ذلك سنحاول الكشف عن هاته المعطيات من الناحية التداولية لنرى مدى جمالية المولدية مع الشاعرين أبي حمو موسى الزياني والثغري، وعليه فإن معالم الدراسة تتحدد وفق الخطة التالية:

أولا: مقدمة

ثانيا: المولديات الزيانية والإجراءات التداولية

1. المولديات في العصر الزياني
2. إجراءات التحليل التداولي بين المولديتين

* مجال الاهتمام تحليل الخطاب الأدبي الجزائري القديم والحديث

ثالثا: خاتمة:

- مفتاح الدراسة: المولدية الزيانية - القراءة التداولية - مولدية أبي حمو موسى الزياني ومولدية الثغري.

Résumé :

L'athmosphère dans lequel s'est fêté les occasions de l'anniversaire de la naissance du prophète mohammed à l'époque de l'âge Zianides à tlemcen sucite une critique pragmatique.commençant par les circonstances qui ont contribué à sa propagande et c'est ce qui privilégié ces cérémonie et la façon de la préparer.

Abou Hamou Moussa Ezianni s'est interessé à ce phénomène ce qui a donné une grande poussée dans la beauté de la créativité à la chanson de complément du prophéte. c'est aussi parmi les facteurs qui ont contribué dans le changement des situations dans cet âge.

Ces créativités belles et splendides qu'a touché la pragmatique dans sa diversité méthodologique demande à être lu et critiqué pour résoudre ses secrets enigmatiques de ce discours actuellement la lecture pragmatique est présente dans les secrets de la cérémonie prophétique zianide à travers ses poêtes et ses pôles dans l'utilisation linguistique, langagière c'est ou se transforme le dire à l'acte.

مقدمة:

ولما كان من مهمات الخطاب الأدبي تلك الوظيفة التبليغية التي تتم ما بين المرسل والمتلقي، فإن ذلك يبرز أنه تجاوز مستوى الجملة إلى مستوى أعلى، وإن ذلك يسمح بإدراك وتجسيد البعد الحقيقي للإنتاج الكلامي الذي يؤهل اللغة أن يكون لها نمط تعبيري بعيد عن كونها نظاما لغويا، بل ترقى كونها حوارا أو محادثة وكونها أفعالا ذات أبعاد ووظائف اجتماعية ومؤسساتية[1].

إذن هو حدث لغوي يرسله المتكلم نحو المخاطب بقصد إفادته بمعلومات معينة، وفي مقام واضح وباستعمال وسيلة تبليغية محددة، في ظروف وأوضاع يشتركان فيها؛ فاللغة هي أداة للتواصل والتعبير عن الأفكار، وفرانسيس جاك Francis Jaques وهو يتحدث عن التداولية يؤكد هاته الحقيقة أنها تتطرق للّغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا، ويبدو أن سمات الخطاب وهي تطوّر في نظامها اللغوي وجدت من يساند وجهتها من المناهج التي لم تعتبر اللغة مظهرا شكليا قابلا للدراسة، إنّما حدث تتم به الرسالات التبليغية ومقاصد الأفكار.

[1]- ينظر عمر بلخير، مقالات في التداولية والخطاب، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، (د،ط)، (د،ت)، ص11.

والتداولية Pragmatique عند رائدها أوستين «جزء من علم أعم هو دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي، وبهذا المفهوم ينتقل باللغة من مستواها اللغوي إلى مستوى آخر هو المستوى الاجتماعي في نطاق التأثير والتأثر؛ فالتداولية تدرس الاتصال اللغوي في إطاره الاجتماعي بالكشف عن الشروط والمعطيات التي تسهم في إنتاج الفعل اللغوي من جهة، كما تبحث في فاعليته وآثاره الملية من جهة أخرى»[1]؛ وهذا من أهم ما يميز سمات إجراءاتها؛ فاللغة وهي تشكل خطابا تعمل على كشف الظروف الاجتماعية التي يمكنها أن تجمع بين طرفي العملية الإلقائية، كما أنها تعمل على إحداث التفاعل والتأثير والتأثر بينهما ولا ننسى التغيير الذي يمكن أن تحدثه مع الخطاب، وهذا لا يحدث إلا بصاحب العملية الإبداعية وهو يبحث أثنا تجربته الإبداعية عن الأدوات الفنية التي من شأنها إنتاج لغة تجسد واقعا في اطار السياق.

لقد عملت التداولية وهي تسعى لتحقيق طموح الخطاب على تغيير تلك النظرة السابقة للغة وهي توقن أن الخطاب تنظيم يتجاوز الجملة، فهو ليس تتابعا لمجموعة من الكلمات بل هناك ما هو أعمق.

هو عبارة عن نمط من الأفعال لأن اللغة عبارة عن أقوال تتحول إلى أفعال مختلفة باختلاف السياقات التي ترد فيها وهو الأمر الذي أكدته نظرية الأفعال الكلامية مع أوستين وتلميذه سيرل؛ « فالخطاب تفاعلي يتجلى في المحادثات التي يسعى فيها أصحابها إلى التنسيق بين مختلف ملفوظاتهم أثناء تحاورهم ويشمل هذا النمط الخطابي كل ما يصدر عن المتكلم من خطاب أ حضر المستمع فيه أم لم يحضر كالمحاضرات والخطابات السياسية»[2]، وحتى النص الشعري الذي يستلزم في بعض الأحيان وانطلاقا من سماته الإلقائية حضور المستمع لاسيما إذا كان المقام يستدعي ذلك.

وهو كذلك بالنسبة للظاهرة الأدبية التي نعمد إلى الكشف عنها وعن ملابساتها الدينية والاجتماعية والسياسية في عصر الزيانيين مع أبي حمو موسى الزياني؛ فهي حقيقة تؤهل الدراسة

[1]– ينظر د. عبد الحليم بن عيسى مقال(النص التراثي وآليات قراءته التداولية، نقد النثر لقدامة بن جعفر نموذجا)، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات وخدمات التعليمية، جوان2009م–1430هـ، ص 44.

2– د. عبد الحليم بن عيسى مقال(النص التراثي وآليات قراءته التداولية، نقد النثر لقدامة بن جعفر نموذجا)، ص12.

أن تبحث في ظاهرة **المولديات** لهذا العصر، وكيف أنها ارتبطت بالمجتمع والنص الأدبي المتجسد في المديح النبوي الجزائري.

سنحاول البحث عمّا ميّزها من أجواء ودينية انعكست على الحياة الاجتماعية والسياسية، وكذلك البحث في جماليتها الإلقائية وهي تفي بهذا الغرض طبعا وفق الإجراء التداولي« ويعنى بدراسة الاستخدام اللغوي والضوابط التي تحكمه ودور المقام أو السياق غير اللغوي في التواصل الإنساني، ويتميز هذا الاتجاه بعنايته بكل من المتكلم والسامع والعلاقة بينهما وما يرافق الكلام من حركات الجسم وتعبيرات الوجه، ومن يشاركون في الاتصال اللغوي، وبيئة الحدث المكانية والزمانية... »[1]، الذي يبحث في المعطيات الملائمة لأفعال القول ومقتضيات المواقف بمعنى الظروف والمقام الذين ألقيت فيهما المولديات وفق عناصر الإجراء التداولي المتمثل في القصدية واستراتيجية التخاطب والتأثير.

وبما أن المشهد الاحتفالي حاضر وأبطاله الشعراء أسهموا في تجسيده بإلقاء مولدياتهم النبوية، فكيف تعاملوا مع اللغة وهم يحملون مقاصد دينية اتجاه النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما طبيعة تلك الأساليب والطرق التي يبغون بواسطتها ترجمة مقاصدهم وإلى أيِّ مدى ستجد صداها التبليغي والتأثيري عند المستمع/المتلقي بأفعالها الإنجازية؟ هذا من جهة وكيف يتم نقل رسالة التغيير في المجتمع من جهة أخراة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالات سنلقي الدراسة على أبرز أقطابه أبي حمو موسى الزياني و أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري في مولديتهما، ونبحث عن طبيعة الاستعمال اللغوي في بناء مدحتيهما الدينية وفق المقام الإلقائي وما ينجرّ عن ذلك من أفعال إنجازية تؤثر في المتلقي.

المولديات الزيانية والإجراءات التداولية

1- المولديات في العصر الزياني.

لقد أدرك أبو حمو موسى الزيّاني(760-791ه) عظم المهمة، وكبر المسؤوليات التي ألقيت على عاتقه، وهو يحاول جاهدا أن يصنع لأمته مجدا وصرحا منيعا للضربات الفكرية النصرانية، ساعيا وراء حكم سياسي سليم ووضع اجتماعي أمين وحياة دينية متوازنة؛ فازدهى

1- د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، سنة 2002، ص57- 58.

عصره بحلة إيمانية تعطرت باحتفاء ديني جسّد من خلاله حنكته وفضله في إرجاع حياة الاستقرار الديني الذي شاهد زعزعة في المغرب الأوسط بالأخص بعد سقوط دولة الموحدين.

ومن المظاهر التي ساعدت على تغيير الوضع، كان الزيانيون في تلمسان يحتفلون بالمولد النبوي الشريف في جوّ يجسد جهدا وحكمة وتخطيطا لما سينماز به من تحضير مسبق لهذه الذكرى التي وجدوا فيها ملاذا وإنقاذا لهم ولدينهم، هو جهد جهيد وحكمة محنّكة وتخطيط مدبّر من طرف سلطانهم الزيّاني أبي حمو الذي ستتراءى مفاصله في إحياء الليلة كما يجب لسيد المرسلين والوقوف على كلّ ما من شأنه أن يبهج تلك الليلة.

لقد أشاعه في بلاده تلمسان بالمغرب الأوسط بعدما نقل تقاليده إلى المغرب من المشرق أبو العباس العزفي الشريف (633هـ)؛ ووصف التنسي المشهد الاحتفالي قائلا«فكان يقوم بحق الله ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المراسم، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وشمع كالأسطوانات وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات ينال منها كلٌّ بحظه...والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ الجلوس فيه، وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح»[1]، وهذا ما يميز مقامه وأهله طيلة الشهر.

ولما كانت تلك الليلة لعظمة المصطفى وجماله وإسوته صلى الله عليه وسلم، فحري به أن يحضر المديح النبوي في هذا المقام فارضا وجوده الجمالي والفني، والأولى بهم أولئك الشعراء أن يستشعروا ذاك الجمال وتلك العظمة في النفوس بما أُتُوا من قوة في الأداء الفني، والأولى بهم أول النّاس في متعة الحدث وأناقته، أولى بهم أن يتأهبوا ويستعدوا بعالمهم المدحي لمثل هكذا يوم؛ « فالمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم...»[2].

وما يجعل الأمر أكثر روعة وحفاوة أنّ أبا حمو موسى الزيّاني كان شاعرا هو الآخر؛ فلم يكفه أن قام إنجاح الاحتفاء، بل وكان من الشعراء المدّاح الذين يمتّعون مسامع الحاضرين ويستمتعون، فيكتمل بذلك مشهد الاحتفال وروعة الحدث تقصه علينا متعة اللقاء والإلقاء

1- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، تح محمود بو عياد، منشورات، موفم للنشر والتوزيع، (د.ط)، 2011، ص162، 164.

2- المصدر نفسه، ص163.

المدحي في حضرة المصطفى «وما من ليلة مولد تمر في أيامه إلا ونظم فيها قصيدة في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، أول ما يبتدئ المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظما»[1]؛ فكان يتحف المسامع بما جادت به قريحته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقول في إحدى ليالي المولد النبوي الشريف:

قفــا بين أرجــاء القبــاب وبالحي ** وحـــي ديارا للحبيب بهـــا حـــيّ
وعرّج على نجــد وسلـــع ورامـــة ** وسائل فدتك النّفس في الحيّ عن ميّ[2]

لقد« كان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر، ويحب أهله»[3] ثم يتبعه في الإلقاء شعراء يمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يخلصون في النهاية لمدح السلطان في قصائد مطولة« وهنا نقف على تقليد واضح وثابت في هذه الاحتفالية وهو الاستماع أولا للمسمع وهو ينشد شعر السلطان كنموذج مدح نبوي يقتدى به ونص يفتتح به الحفل رسميا ثم تنهال بعده القصائد المولدية والأناشيد صانعة ومكملة صورة الحفل، يذكر فيها الشعراء أخلاق النبي وغزواته وكل ما يتعلق بسيرته ويخلصون في النهاية إلى مديح السلطان الحاضر»[4]، وكان من بين أبرزهم على الإطلاق الثغري؛ فالتنسي يقول« ومما رفع إلى حضرته العلمية في بعض المواليد الشريفة قول الأديب البارع المكثر المتفنن أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري أواخر القرن الثامن الهجري* [5]في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومدح المولى أبي حمو وولي عهده المولى أبي تاشفين»[6]:

1- المصدر نفسه، ص164.

2- المصدر نفسه، ص164.

3- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا- ابراهيم الأبياري- عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358هـ – 1939م، (د،ت)، ص 249.

4- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم، عهد تلمسان الزيانية، موفم للنشر، الجزائر2008، (د،ط)، ص 85.

* محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري، أبو عبد الله، شاعر أديب، كاتب، من أهل تلمسان وأشهر شعرائها، وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها، كان من شعراء بلاط السلطان أبي حمو موسى الثاني، وله قصائد كثيرة نقلها له يحيى بن خلدون في بغية الروّاد والمقّري في أزهاره، وابن عمار في رحلته" نحلة الحبيب".

5 – ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة، بيروت لبنان، سنة1400هـ- 1980م، ط(2)، ص92.

6- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص168- 169.

سـرّ المحبـة بالدموع يترجـم ** فالدّمع إن تسأل فصيح أعجم
والحال تنطق عن لسان صامت ** والصبّ يصمت والهوى يتكلم[1]

وبما أن الأمر فيه إصلاح لحياة النّاس لما فيه صلاحهم، فإنّها من مهمات الشعر على أساس أنه رسالة تُغيّر وتبحث عن الأفضل للمجتمع، وقد وجدوا ذلك في الاقتداء بسيد الأنام الأمثل، يقول التنسي على هذا الاحتفال الزياني «على هذا الأسلوب تمضي ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته أعلى الله مقامه في عليين، وشكر له في ذلك صنعه الجميل آمين»[2]، هو تقليد زيّاني يستمر معه طيلة أيّام المولد.

ومن المولديات التي اشتهرت آنذاك مولدية يحيي ابن خلدون* الذي كان مؤرخا للدولة الزيانية والقائم على ديوان الإنشاء فيها، كانت له مشاركات عدة في إحياء ليلة المولد، وكان ملازما للسلطان مشيدا بتلك الإنجازات السياسية والثقافية، وهو يقول في إحدى مناسبات المولد:

يا مالك الخير والخيل التي حكمت ** لـه بعـزّ علـى الأيـام مقتبـل
هـذا الصبـاح وقـد لاحت بشـائره ** والليـل ودّعنـا توديـع مرتحل
لله عشـر من السـاعـات بـاهــرة ** مضين لا عن قلّى منـّا ولا مـلل[3]

أمّا عن طبيب دولته أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير بالتلاليسي*، فله موشحة خاطب بها السلطان أبا حمو موسى يقول فيها:

لـي دمـع هتـان ** ينهـل مثـل الـدّررْ
قـد صيّر الأجفان ** مـا إن لها مـن أثـرْ
حـق لـه يجـري ** دما على طول الدوامْ
مـذ جدّ في السير ** نـاس إلـى خير الأنامْ
1

1- التنسي، ص169.
2 - التنسي، ص164.

3- المقري، أزهار الرياض، ص247.
* محمد بن أبي جمعة بن علي التلاليسي، أبو عبد الله، طبيب وشاعر وأديب من أهل تلمسان، برع في الطب فاتخذه أبو حمو طبيبا له، له قصائد كثيرة في المدح والرثاء والموشحات...

وما تجدر الإشارة إليه أن الشاعر أثناء مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ينتهج بناء القصيدة العربية من مقدمة، ثم الدخول إلى عالم المدح بشقيه مدح نبوي والانتقال إلى مدح السلطان وهذه أهم خاصية ميّزت المولدية في بنائها وهذا مع كلّ الشعراء إلا أبا حمو الذي لا يمكن أن يمدح نفسه فتجده يقدم ثم يمدح النبي ومدى الشوق للضريح وأرض الحجاز وتمنيه الزيارة واللقاء، وحتى يصبر نفسه يبعث مراسيله وتحياته والأشواق عبر النسيم والبرق والرياح وهو يطلب الشفاعة يبحث عن مغفرة.

فالتجربة الإبداعية التي خاضها شعراء المدح النبوي في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لهذا العصر وملابساته تسمح بحضور الإجراء التداولي وما يعنى به من قضايا الاستعمال اللغوي والسياق والموقف، حيث الظروف الدينية التي كانت قارة والاضطراب الاجتماعي استدعى ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف حتى تسهم في عودة الاستقرار الديني، وكانت لهذا الحفل بمعية المديح النبوي الشريف تقاليد هي جديرة بدراستها دراسة تداولية، فهي تشكل جوّا للتداولية حتى تقول قولتها في كيفية تقديم الشاعر لمدحته النبوية، وهو يلقي ثم مشاعره اتجاه الحبيب المصطفى ومدى أشواقه لحضرته في الأراضي المقدسة أضف إلى ذلك مدحه للسلطان أبي حمو موسى الزياني.

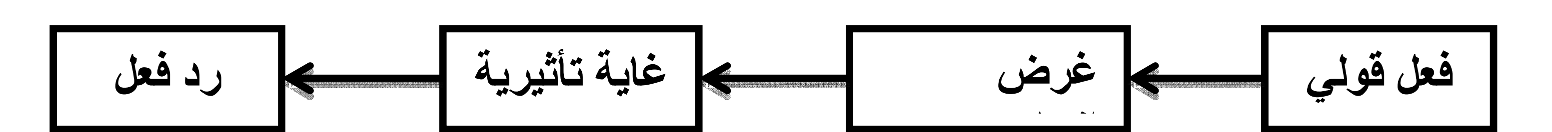
إنه جوّ إبداعي يستدعي أسئلة عديدات تقارب تلك التي شكّلها المنهج التداولي في مسيرة حياته التطورية والتي من شأنها تفقد وتتبع أهمية اللغة من حيث أنها جزء من التعامل الاجتماعي واتصال اجتماعي تبدو آثاره في تلك المهمة الإلقائية والتبليغية تأثيرا وتأثرا، وتبحث عن الإجابة لمن يستفهم عمّا نصنع حين نتكلم؟ وماذا نقول؟ ومن يتكلم؟ وإلى من ولأجل من؟ وبما أن المقام يستدعي الإصلاح وتغيير الوضع، فإن دراستنا تبحث في الخطاب الشعري في ذاك الجو البهي المفعم بالروحانية، وتتأمل الإجراء النقدي التداولي حيث يتناسب وطبيعة هذا الجو والسبب الذي من أجله وضع.

2- إجراءات التحليل التداولي بين المولديتين.

[1] - ينظر المقري، أزهار الرياض، ص247- 248.

إن المنهج التداولي يبحث عن مظاهر الاستعمال اللغوي وعلاقته بالمقام والسياق وما يقتضيه من إنتاج عملية الاتصال والتبليغ، وذلك من خلال ما عرفت به من إجراءات تؤكد مهمتها في «الكشف عن الشروط التي تؤمن النجاح والفعالية للاستعمال اللغوي وفق ما تقتضيه مختلف المواقف الاتصالية»[1]، فسنبحث عن تلك المعطيات التي توفرت في هذا الحفل لإنجاز الفعل الكلامي وتحقيق النجاح التداولي، وذلك من خلال أهم نقاطه المتمثلة في القصدية التي تتعلق بالمتكلم وما يفكر فيه أثناء تلفظه، وبكل عملية من شأنها أن تحفز العملية التبليغية أما عن الاستراتيجيات التخاطبية فهي الأساليب التي يصوغ عليها ملفوظاته وتنسجم ومقاصده وفق المقام التبليغي ومختلف سياقاته وهذا ما يساعد على تجسيد الغاية التأثيرية للعملية التخاطبية.

وسنركز عليه فقي الدراسة على نظرية الأفعال الكلامية (Speech Act Theory) على اعتبار أنها من أهم الاستراتيجيات التخاطبية في ترجمة قصد المتكلم ومساعدته في التبليغ والتأثير لأنها كل « ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري»[2] يقوم على نشاط مادي نحوي يتوسل أفعال قولية لتحقيق أغراض إنجازية مثل الطلب والوعد والوعيد وغاية تأثيرية تتمثل في ردود أفعال المتلقي بالرفض أو القبول.



لقد توضحت انطلاقا من ذلك معالمها مع مؤسسها أوستينJ.L.Austin وتلميذه سيرلR. Searle. وهي« كلّ كلام ملفوظ يفضي التلفظ به في شروط معينة إلى حدث أو فعل، ينتج هذا الفعل آثارا قد تكون لغوية، وقد تكون غير لغوية»[3]، ولذلك تجده يميز بين ثلاثة أنواع من الأفعال اللغوية هي:

1. **الفعل القولي:** الذي يتحقق وقت التلفظ بشيء ما.

---

[1]– د. عبد الحليم بن عيسى مقال(النص التراثي وآليات قراءته التداولية، نقد النثر لقدامة بن جعفر نموذجا)، ص45.

[2]– د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة بيروت، (د،ط)، (د،ت)، ص40.

[3]– سامية شودار، الخطاب الشعري في أطلس المعجزات لصالح خرفي دراسة تداولية، مذكرة مقدمة لشهادة الماجيستير، 2013–2014، ص93.

2. **الفعل الإنجازي**: الذي يتحقق بقولنا شيئا ما بمعنى ما يؤديه الفعل القولي من وظيفة كالوعد والتحذير والأمر والنصح وهو متعلق بالمرسل.

3.**الفعل التأثيري**: هو ذلك الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المتلقي وهو متعلق به، ولن يتم إلا عند حدوث ردة فعل من طرفه، وهذا النوع الأخير إذا لم تحدث استجابة أو عدم فهم الرسالة فإنّه يتحول الفعل من فعل كلامي مباشر إلى فعل كلامي غير مباشر؛ فالفعل الكلامي المباشر حدث كلامي دلالة ملفوظه مباشرة وحرفية، بينما الفعل الكلامي غير مباشر فالمعنى ينتقل فيه من الحقيقة إلى المجاز حيث يحتاج إلى الصور البيانية كالاستعارة والكناية.

ويصنّف أوستين الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف متمثلة في أفعال الأحكام أو القررات التشريعية، وأفعل الممارسات التشريعية، وأفعال الإباحة، وأفعال السلوك وأفعال المعروضات الموصوفة، ولكن سيرل يعدل من هذه التصنيفات وهي التي اعتمدت في التحليل التداولي؛ فقد انتقده موضحا أنه لم يراع تلك المعايير المتعلقة بغاية الفعل ووجهة الإنجاز وأسلوبه وفعله[1]، وعليه فقد اقترح تصنيفا آخر يقوم على ثلاثة أسس منهجية وهي:

أ- الغرض الإنجازي: (illocutionary point)

ب- اتجاه المطابقة: (direction of fit)

ج- شرط الإخلاص: (sincerity condition)

وجعلها في خمسة أصناف اعتبرت منطلق الدراسات وإجراءاتها التداولية، وهي **الإخباريات والالتزاميات والتوجيهات والتعبيريات والإعلانيات**[2]، وبها ستتضح منهجية دراستنا للمولوديتين، ولكن قبل هذا نحاول أن نتبين مضامين هاته المصطلحات.

أولا: الإخباريات:

1. **الغرض الإنجازي** فيها هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية يعبر بها عن هذه الواقعة، وأن أفعال هذا الصنف تحتمل الصدق والكذب.

2. **اتجاه المطابقة** فيها من الكلمات إلى العالم (Words to World) وتتضمن معظم أفعال الإيضاح وأفعال الأحكام.

1- ينظر د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص71.

2- ينظر المرجع نفسه، ص 78.

3. **شرط الإخلاص** يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها، وشرط تحققه الأمانة، وإذا تحقق شرط الإخلاص أنجزت الأفعال بنجاح وبشكل تام وإلا لكانت أخبارا لا معنى لها[1]

ثانيا: التوجيهات (الطلبيات)

1. غرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين،

2. اتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات.

3. شرط الإخلاص في الرغبة الصادقة، وهنا يدخل الاستفهام، الأمر، النهي، الدعوة، التشجيع النصح الاستعطاف[2].

ثالثا: الالتزاميات:

1. **غرضها الإنجازي:** هو الوعد أي أن يلتزم المتكلم بفعل شيء في المستقبل بدرجات متفاوتة.

2. **اتجاه المطابقة:** فيها من العالم إلى الكلمات

3. **شرط الإخلاص:** هو القصد ويدخل فيها أفعال الوعد والوصية[3].

رابعا: التعبيريات:

1. **غرضها الإنجازي:** التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوفر فيه شرط الإخلاص وفي هذا الصنف

2. **اتّجاه المطابقة:** لا يوجد لأن المتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخاجي ولا العكس.

3. **الإخلاص:** في التعبير عن القضية ويدخل في هذا الصنف أفعال الشكر والتهنئة والاعتذار والمواساة.

خامسا: الإعلانيات: وتسمى بالإيقاعيات

1. **غرضها الإنجازي:** ما يميزها أداؤها النّاجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي* للعالم الخارجي،

---

1 – ينظر المرجع نفسه، ص 79.

2– ينظر المرجع نفسه، ص 79.

3 – ينظر المرجع نفسه، ص 80.

2. اتجاه المطابقة: فيها مزدوجة في كلا الاتجاهين من العالم إلى الكلمات، من الكلمات إلى العالم.

3. شرط الإخلاص: لا تحتاج إليه، وما يميز هذا النوع من الأصناف أنها تُحدث تغييرا للوضع القائم، وتقتضي عرفا غير لغوي...[1]

وسنحاول منطلقين مما سبق من الأدوات التحليلية أن ندرس المولديتين دراسة تداولية نقارن بينهما، وذلك من خلال بناء المولدية المتمثل في: التقديم بالطلل والنسيب والشوق إلى الأماكن المقدسة ثم المديح النبوي ثم المديح السلطاني.

بين النص النموذج والنص الموالي: يائية السلطان وميمية الثغري.

المديح النبوي تعبير صادق عن أحاسيس العظمة والانبهار لصفاته الخُلقية والخِلقية ومعجزاته والشوق لرؤياه وزيارة قبره والأماكن المقدسة المرتبطة بحضرته، وأخد المواعظ والعبر والصلاة عليه، وطلب الشفاعة منه والتوسل به للمغفرة، هي أحاسيس تخصّ سيد المرسلين يعمل فيها الشاعر على توفير كلّ ما لديه من طاقات فنية إبداعية يسخرها لإبراز تلك المكانة والعظمة التي حباه الله بها[2]؛ فالشاعر في موقفه هذا وأحاسيسه تلك وأمام حضرة النبي ومن خلال خطابه الشعري يظهر مدى حبه وشوقه وتقصيره...[3].

وإن ما يميّز المديح النبوي كما رأى جميل حمداوي أنّها تتداخل غالبا مع قصائد المولد النبوي الشريف وهو ما يطلق عليها **بالمولديات؛** يوم مولد الرسول محمد بن عبد الله في الثاني عشر من ربيع الأول حيث يعتبر يوم فرح وسرور به؛ حيث تقام مجالس تنشد فيها القصائد في مدح المصطفى ومدح السلطان، ويظهر فيها الشاعر مدى شوقه للبقاع المقدسة، فأصبحت ظاهرة منتشرة في المشرق والمغرب على السواء لظروف طبعا دينية، والأخرى اجتماعية، لاسيما في المغرب الأوسط مع الزيانيين.

---

* الفعل القضوي هو ما يشمل المتحدث عنه أو المرجع reference والمتحدث به أو الخبر، والفعل القضوي لا يقع وحده إنما يستخدم دائما مع فعل إنجازي في اطار كلام مركب.

1 – ينظر د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص80.

[2]– زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مصر الجديدة 1354هـ– 1935م، (د، ط)، ص17.

[3]– جميل حمداوي، شعر المديح النبوي في الأدب العربي، مقال بالشبكة المعلوماتية، ديوان العرب، سنة 2007، الموقع: http://www.diwanalarab.com.

والواقف على هذا النوع من المديح النبوي ليجد أنّ له ميزات إضافة إلى ما رأيناه أنه يُخصص لذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه يحضّر له بالقصائد لإلقائها على الحضور للموعظة والتأسي بقدوته وأخلاقه، وإنّ أول من يلقي في هذا الحفل السلطان أبو حمو موسى الزياني يفتتح به ثم تليه المدائح الأخرى للشعراء، وهذا هو الأسلوب المتبع طيلة شهر المولد والذي يميّز احتفالهم[1].

ونمثل بنموذجين من المولديات الزيانية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم؛ المولودية الأولى للسلطان أبي حمو موسى الزياني وهو النص الإفتتاحي **"اليائية"** وتبلغ أبياتها أربعين بيتا، أما المولدية الثانية للثغري النص الموالي **"الميمية"** وتبلغ عدد أبياتها ثمانية وثمانين بيتا، وكان موضوعهما مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بمناسبة ليلة مولده الكريم، وعلى غرار المدائح والقصيدة العربية عموما؛ فقد افتتحا مولديتهما بالنسيب والطلل ثم أفصحا على مدى شوقهما وحنينهما للأراضي المقدسة، وكلّ أمر مرتبط بالرسول صلى الله عليه وسلم ثم انتقلا لمديح المصطفى وأضاف الثغري مدح السلطان أبي حمو، وسندرسهما من الوجهة التداولية على أساس المقارنة وذلك عبر ثلاث محطات.

1- النسيب والطلل

قدّم كلّ من الشاعر السلطان والشاعر الثغري على طريقة القدامى وإن كانت الدّيار والأهل والخلان غير تلك التي عرفناها مع امرئ القيس وعنترة وغيرهما؛ فلم يجد شعراء المدح النبوي مشكلا في الوقوف على الطلل حتى وإن لم يروا طللا ولكنه تقليد لابد من المسير على نهجه؛ فالديار عندهما هي مكة والبقيع والأهل والخلان الرسول صلى الله عليه وسلم وآله وصحابته...وحتى دلالات الرموز التي عرفت في قاموس الشعر القديم بات لها دلالة مدحية نبوية تطال عالم التصوف كرمز الكعبة التي سمّاها أبو حمو "مي"؛ « فهذه الأطلال المزعومة عند الشعراء لا وجود لها في الواقع بل هي تقليد أسهم الخيال من خلالها في إذكاء شوق الشاعر وحنينه إلى الحجاز والماكن المقدسة، فأوصلته الراحلة إلى تلك المرابع ومنها إلى مدح الرسول»[2]، لقد استعانا بطريقة التقديم المعروفة ولكن طبعا حسب تجربتهما الشعرية والموقف الذي كانا فيه

1- ينظر أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص85.

2- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص102.

فلا ننسى أن المقام محمدي والموقف احتفالي إلقائي فكان لابدّ من إشارات ومميزات ميّزت المدحتين النبويتين.

لقد افتتح أبو حمو الزياني الاحتفال بالمولد النبوي الشريف **بمولديته النموذج اليائية** كانطلاقة رسمية للحفل، وهي تضم الأربعين بيتا يستهل فيها حديثه بمقدمة طللية يقول فيها:

قفـا بين أرجـاء القبـاب وبالحـيّ	**	وحـيّ ديـارا للحبيب بها حـيّ
وعـرّج علـى نجـد وسلـع ورامـة	**	وسائل فدتك النّفس في الحيّ عن ميّ
وقـل ذلك المضني المعـذّب بالهوى	**	يموت ويحـي فـارث للميت الحـيّ
وبث لهـم وجـدي وفـرط صبابتـي	**	وروّ حديثـي فهـو أغـرب مـروي[1]

فالمتأمل في هذه المقدمة ليتبين تمسّك الشاعر واهتمامه بالتقاليد الشعرية التي نادى بها ابن قتيبة وابن سلام الجمحي وغيرهم من النقاد القدامى والمحدثين الذين تواضعوا على سمات القصيدة العربية وشروط بنائها التي عرفت بها، والذين أشاروا إلى «أن العرب استمدت قواعد وحدود القصيدة العربية من الشعر الجاهلي وخاصة في المدائح»[2]، وكما هو معروف منذ زمن حسان بن ثابت أن الشاعر وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدم بمقدمة على سيرة شعراء في العصر الجاهلي؛ فكانت القواعد واضحة حيث تفنن فيها الشعراء كلّ بطريقته ولكن الهدف واحد وهو استمالة القلوب.

وقد أكّد ابن قتيبة هذه الحقيقة وهو يبرز أنّ ما يلفت الانتباه في قصيدة المديح هو ابتداء الشاعر بذكر الأطلال والدمن والآثار« وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الدّيار والدّمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ... فشكا شدّة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب...»[3]؛ وأبو حمو موسى الزيّاني بما أنه المفوَّض الأول في الإلقاء كتقليد متّبع في الاحتفال بالمولد كان لابدّ عليه أن يفتتح بما يجعل الحضور مستمعا منتبها لهاته الأجواء، وهنا تحضر نظرية الاستعمال اللغوي التي تعبر عن أفعال إنجازية من مهمتها التأثير في المستمع.

1- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص164.
2- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص97.
3- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج(1)، دار الحديث القاهرة، سنة 1427هـ- 2006م، ص75، 85.

كانت البداية معه ملفتة للنظر لأنه ابتدأ بطلب يحاكي فيه القدامى ؛ فهو يوجه كلامه ويخاطب ويطلب حادي الركب أن يتفقد له المكان ويسأل عن الأهل وكيف الحال، لقد استعان بأفعال تعينه على ذلك، وهي أفعال تمثل القاموس اللغوي الذي طالما قدّم به الشاعر العربي(قفا- عرّج- ارث- سائل...)، « ولعل مقدمة أبي حمو قد جاءت لتكشف عن مقدرته الإبداعية عن طريق التزامه بالتقاليد الأصلية في المجتمع العربي ومحافظته عليها»[1].

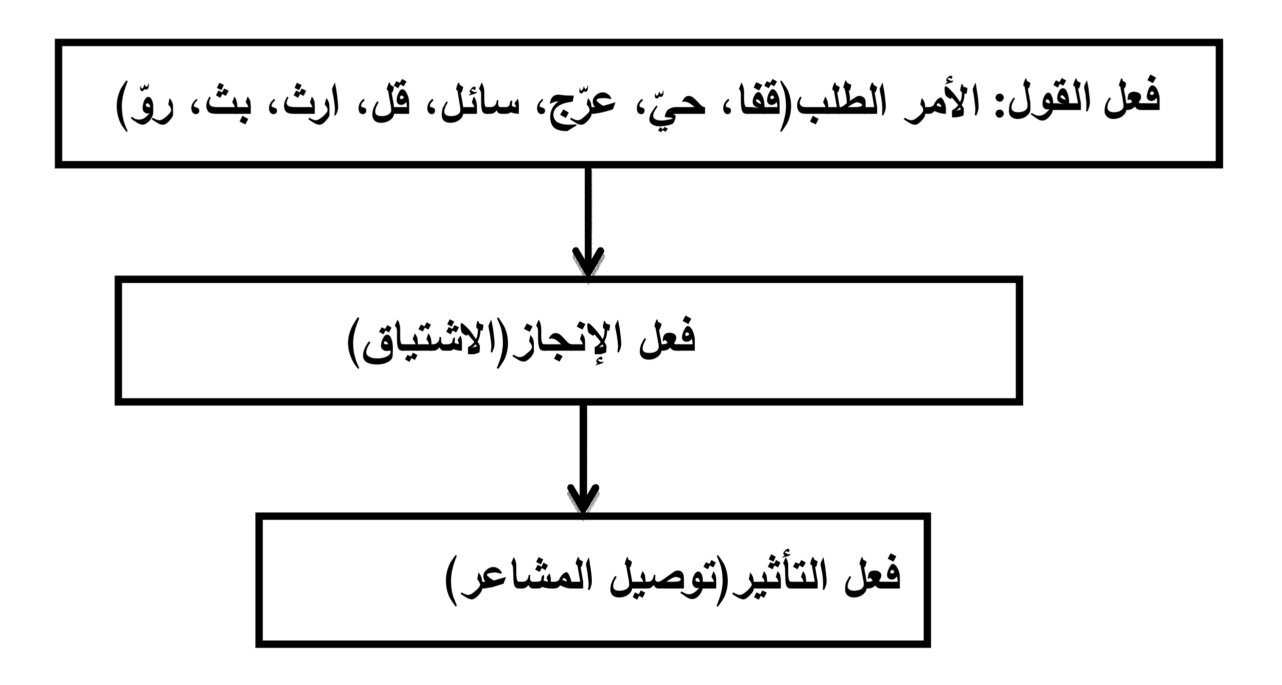
من الوجهة التداولية لنظرية الحدث الكلامي فإنّ الشاعر بدأ بالصنف الثاني من تقسيمات سيرل وهي التوجيهات أو ما يسمى بالطلبيات كصنف تكثر فيه صيغ الاستفهام والأمر والنّهي والنصح والدعوة وغيرها... وهذا من البيت الأول إلى البيت الرابع؛ لأنه يدعو للوقوف على ديار الحبيب "قفا" على طريقة القدامى كامرئ القيس "قفا نبكي" وهي من سنن العرب أن تأمر الواحد بصيغة المثنى.

وهذا طبيعي لأنه يودّ مخاطبة الربع واستوقافهم، وفي موقفه الشعري هذا هو يستوقف ويخاطب ركب الحجيج الراحلين إلى أرض الحجاز في جو مفعم بالإيمان ومشاعر دينية صادقة نحو الحبيب المصطفى وهيبة السلطان وأدبه ووقاره أمام المسلمين جعلته يقف بأدوات تدل على الرموز الدينية هناك، وربما تدل كذلك على الذكريات الإيمانية الجميلة التي تجعله يستذكرها[2]، وربما هي دعوة للحجيج حتى يذكرهم بديار الحبيب، وحتى لفظة **"مي"** فإن لها أبعاد رمزية وربّما صوفية تدل على الكعبة، وهنا تتجلى لنا مقاصد الشاعر في الأفعال التي يطلب ويطالب بها كل ما له علاقة بالديار المقدسة، فهو يستبدل الدّيار الدارسة بالدّيار الحجازية والمحمدية.

وحتى نفسر هذا الصنف في المقدمة؛ فإن الغرض الإنجازي هنا يتمثل في أن الشاعر وجّه حادي الركب المخاطَب إلى البحث عن الأحباب ومساءلة المكان عنهم، والشاعر صادق فيما يراه، ويظهر ذلك في المساءلات الدالة على شدة شوق الشاعر لأرض الحبيب وما يربطه به هناك (وسائل فدتك النفس عن ميّ- وبثّ لهم وجدي...)، وحتى ينهي من التقديم طالب الحادي أن يروي شوقه وينقل حالته، وبهذا يكون قد انتقل إلى نوع آخر من الحدث الكلامي حتى يصوّر مشاعر شوقه، وهذه المرحلة الثانية في بناء النص المولدي.

1- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص108.

2- المرجع نفسه، ص108.



وما سنراه من تقديم الثغري يختلف عما كان عند السلطان، لقد ذكرنا سابقا أنه بعد إلقاء السلطان يلقي الشعراء بدورهم خطابهم الشعري في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ففي مدحته النبوية "سرّ المحبة بالدموع يترجم" التي فاقت أبياتها الثمانين بيتا هو كالباكي على الطلل، يشتكي ألم الفراق والبعد عن الأهل والخلان، ولكن ليس كمثل أهل امرئ القيس أو خلان زهير بن أبي سلمى وغيرهم، إنما هم أهل البقيع، وكذلك فعل أبو حمو موسى الزياني موطن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فيذكر أنه يتعذب لأنه في شوق إليهم، وذاك ما تضمنته مقدمة القصيدة من البيت الأول إلى البيت الخامس عشر:

سرّ المحبة بالدموع يترجم	**	فالدمع إن تسأل فصيح أعجم
والحال تنطق عن لسان صامت	**	والصبّ يصمت والهوى يتكلم
كم رمت كتمان الهوى فوشى به	**	جفن ينم بكل سرّ يكتم[1]

فالثغري لم يبدأ بالتوجيه والطلب إنما بطريقة وصفية عادية، ولعل المقام استدعى ذلك وكذلك الظرف؛ فأبو حمو حين بدأ كان مضطرا لمثل هكذا تقديم حتى يهيئ الجمهور ويدخلهم عالم المديح، فيستنهض مشاعرهم ويلهب المكان بحكم أولويته، وربما نقول أنه أراد أن يحمّس الحضور ويبعث فيهم ما يجعلهم متشوقين للمزيد طيلة ليلة المولد، ويفتح المجال للثغري حتى يستمر

1 – محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص169.

فيما بدأ به هذا من جهة ثم إن المقام يستدعي الاحترام السلطان والحضور من فقهاء وعلماء وغيرهم من جهة أخراة؛ وهذا ما أكده أحمد موساوي أن القارئ ليتبين ذلك الانتقاء المحكم للمفردات المناسبة للمدحة النبوية أثناء إلقائه أمام السلطان وفي حضرة العلماء والفقهاء وعامة الناس؛ «فالوقفة هنا والمكان يفرض ويشترط من الحيطة والمراجعة الجيدة لما يلقى أمام الجميع ويلامس مسامعهم فيحافظ على مشاعرهم؛ لأن الممدوح هو محمد خاتم النبيين ورسول المسلمين وحبيبهم»[1]، فلم يستهل بالتوجيه ولا حتى بالغزل الحسي بينما أراد أن يتم المهمة في أنه يضيف ويؤكد: "سرّ المحبة بالدموع يترجم..."، ولذلك تجد لغته بسيطة واضحة تعبر عن حالة وجده لأهل الحجاز.

وهذا ما جعله يوظف التصنيف الأول وهو التقريريات، وهو يصف حالة شوقه لأهل البقيع هناك؛ فقد قدم بوصف حاله وهو يعاني هواه وحبّه وشكواه لأحبته (سرّ المحبة – الحال تنطق- وصل الأحبة شهد- والقرب منهم جنة...)؛ فتجسد عنده ما يؤكد هذا الصنف الذي يتمثل فيه الغرض الإنجازي نقله للقارئ حاله في فراق الأحبة، وكيف أنّ وصالهم يريّح قلبه؛ فحالته الوجدانية والوجدية لا تحتاج إلى تعبير إنما لسان حاله ناطق بذلك.

2- الشوق إلى الأماكن المقدسة.

لقد أبدى كل من السلطان أبي حمو والثغري شوقه للأراضي المقدسة، وكلّ على طريقته الخاصة، وهو الأمر الذي ميّز المولديات لهذا العصر لأسباب كثيرة منها بعد المكان، فيعبر فيها الشاعر خاصة في موسم الحج عن شوقه؛ فأبو حمو قدّم بصنف التوجيهات ثم انتقل إلى صنف التقريريات في البيت الخامس لما بدأ يعبر عن أشواقه (يعذبني شوقي...يضعفني...أميل...)، وقد أطال الحديث عن ذلك.

وحتى ينتقل أبو حمو من التقديم إلى وصف حال شوقه حوّل استيراتيجية خطابه من صنف التوجيهات إلى الصنف الأول الإخباريات أو التقريريات حيث كان عجز البيت الرابع شاهدا على ذلك: "ورِّ حديثي فهو أغرب مروٍّ" ونقطة تحول من التوجيهات إلى التقريريات؛ وهنا يبرر لنا سبب استوقافه ومخاطبته ويفصح عن حال أشواقه وصبابته:

1- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص110.

يعذبني شوقي ويضعفني الهوى ** وقلبي على جمر من الشوق محمي
لبست ثياب السقم في دوحة الهوى ** وقد صبغت في حبهم لون عودي
تحليت في أهل الهوى بهواهم ** فما لي سوى زي المحبة من زيّ[1]

فالشاعر يعذبه الشوق والنوى فهو على جمر، وهو يعيش حالة من الوجد والصبابة لا للحبيبة إنما لأرض الحجاز، وقد بلغت نفسه حدّها، فهو يبحث عن أيّ شيء كان يعينه على أن يبلغ تلك الأشواق والتحيّات بالنسيم والبرق:

وصرت إذا هبت نسيمات أرضهم ** على شجرات البان أو قضب نسري
أميل بها شوقا إليهم وأنثني ** كما ينثني قدّ الحسام الفرندي
وأصبو إلى أرض الحبيب ومن بها ** متى ما سرى عرف النسيم الحجازي[2]

وفي هذا البيت الأخير يفصح عن أسبابه التي جعلته يعيش حالة شوق ويبحث عمن يرسل معه ذاك الشوق لأرض الحبيب المدينة، فوجد عرف النسيم الحجازي، وهنا يستعين بالصنف الثاني التوجيهات أو الطلبيات من البيت الحادي عشر إلى البيت الثالث والعشرين، وفي كل مسار هذه الأبيات تارة يوجه وتارة أخرى يقرّ، وهذا ما يدل على حالته النفسية المنفعلة في هذا المقام؛ فتجده يدعو لأرض الحبيب بالرعاية والحفظ وسقيها بماء المطر:

رعى الله دارا بالحمى قد عهدتها ** وسقى رثاها صوب مزن سماوي[3]

ثم يذهب نحو النداء وهو ينادي أهل الحجاز يفصح له عن مدى حبّه لهم:(أحبة قلبي ما أمرّ فراقكم...حياتي وموتي في هواكم... فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى)، ثم يقر بأمر مهم وهو السبب الأكبر والمسؤول عن أشواقه؛ أنّه مقيم بأقصى المغرب، هو بعد المكان كسمة ميزت أهل المغرب في مدحهم للنبي، أن يشكو الشاعر بعده عن هاته الديار، وهو يفسر سبب أشواقه بعدما ينادي أهل نجد:

فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى ** فإنّي في بحر من الشوق لجّي
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجوى ** وحالي على حكم النوى غير مخفي[4]

1- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص165.
2- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص165.
3 - المصدر نفسه، ص165.
4- المصدر نفسه، ص166.

ولعل البيت التاسع عشر مهم من حيث أهمية الصنف الثاني في التعبير حيث أفصح عن الدافع في انفعاله الديني هذا وهو ينادي حادي الركاب ويطالبه بأن يخبر أهل نجد بأنه على العهد، ثم يأتي باستفهام استنكاري شديد الانفعال، **فما لذمام عندهم غير مرعي**، وهو يبرز من خلاله أنه منذ مدة لم يلتق بهم إلى درجة أنهم تناسوا عهده، وفي المقابل أن حبّهم في القلب ليس بمنسي ويأتي أمر الوعديات؛ فالشاعر يعد ويتعهد، ويذكر أنه على العهد فلم يعبر عنه مباشرة بل طلب أمرا "أخبرهم" يا حادي الركب أني أراعي ذمامهم بمعنى العهد؛ فهذا الطلب يتحول إلى فعل إنجازي فيوصل الحادي رسالته:

ويا حاديا يحدو الرّكاب إليهم ** أنخ بربى نجد وسلم على طي
وأخبرهم أنيّ أراعي ذمامهم ** فما لذمامي عندهم غير مرعي
تناسيتم عهدي وحفظ مودتي ** وحبّكم في القلب ليس بمنسي[1]

ويواصل أبو حمو منتظرا متى تسمح الأيام باللقاء: "متى تسمح الأيام لي بلقاء الحيّ" متمنيا ذلك، وموضحا أنه إذا لم يراهم فسلام على الدنيا، وهو يتأسف إذا لم يحظ برضاهم يوم الحساب، وهو بذلك يطلب الشفاعة ممن جاء بالهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أمر مهم بالنسبة للطلبيات فإن الشاعر يحتاجها في مثل هذه المواقف لأن ما يشعر به الشاعر وهو يشعر بالتقصير طلب الشفاعة:

وما أرتجي إلا شفـاعة خير مـن ** أتى بالهدى يهـدي بدين حنيـفي
به يرتجي العاصون غفران ذنبـهم ** وما عملوا في الدهر من عمل سي[2]

إلى أن يصل إلى البيت الحادي والثلاثين ويفصح عن احتفاله بالمولد وهو يسلم على أهل البقيع:

بمولـده قـد أشـرق الكون كلّـه ** وكـل سنى شمس وبـدر ودري
سلام على من بالبقيـع وبالحمـى ** سـلام على البـدر المنير التهـامي
سـلام من المشتاق موسى بن يوسف ** علـى خير خلق الله هـاد ومهـدي[3]

فلمّا وصل إلى موضوع مولده جاشت عاطفته ودخل في جو تعبيري ملون بالتوجيه، وما يؤكد هاته الحالة تكراره للتحية والسلام في ثلاثة أبيات والقصد من ذلك التعبير عن شدّة شوقه،

1 – المصدر نفسه، ص166.
2– محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص167.
3 – المصدر نفسه، ص167.

واشتياقه، ولقد برر ذلك أن قلبه بيثرب يفدي نفسه لهذه الأرض الطاهرة لأنها شفاء من الآثام والزيغ، وهو يبرر سبب عدم لقياه والسير مع الركب بالسلطة ومسؤوليته اتجاه الرعية، وهنا يدعو الله بالقرب لأن أشواقه هاته ما يبرؤها ويطفئ نيرانها إلا بالتنعم بنسمات طيبة، وهذا ماجا في أبياته الأخيرة:

لئن أخرتني عن زيارة أحمد ** قلائد أمر قيدتني عن السعي
فربي أرجو أن يمنّ بقربه ** قريبا وشوقي لا يقابل بالنأي
عليه سلام الله ما حنّ شيق ** إلى قبره يطوي الفلا أيّما طيّ[1]

ولأنه من بدأ بالإلقاء فإن البداية جاءت محفزة تلفت انتباه السامعين ورجال البلاغة قالوا أن القصيدة إذا بدأت بالطلب فالغرض البلاغي من ورائها لفت الانتباه، وما يلفت النظر أكثر غياب المديح عند أبي حمو والتفرغ لإبداء مشاعر الشوق والحنين.

أما بالنسبة للثغري فقد استعان بصنف الطلبيات حين أراد أن يعبر عن أشواقه ولم يطل في ذلك بل أكّده في أربع أبيات من البيت السادس عشر حتى البيت التاسع عشر وهو يقسم بزمزم والحطيم وما حوى وبحرمة الحرم الشريف ورفعة البيت المنيف ومقام إبراهيم أن نفسه على جمر من الشوق، ثم يسأل هل من سبيل للقاء الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم:

قسما بزمزم والحطيم وما حوى ** من رحمة ذاك الحطيم وزمزم
وبحرمة الحرم الشريف ورفعة ** البيت المنيف ومن بنجد خيموا
ومقام ابراهيم والركن الذي ** تحمي به الآثام ساعة يلثم
لقد انطوت نفسي على جمر الغضا ** شوقا يشب على الضلوع ويضرم[2]

وحتى يعبر عن صدق مقصده لجأ للقسم برموز دينية يحمل فيها القارئ على التأثر بحالته، علامات مقدسة (زمزم- الحرم الشريف- ومقام ابراهيم...)، كما أنها مواطن مرتبطة بموسم الحج خاصة إذا سبق له وأن زار المكان فإن عواطفه تزيد أسى البعد والنوى، وهذا ما دفعهم لتمني الزيارة ولتسريع بها.

1- المصدر نفسه، ص168- 169.

2- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص177.

3- المديح النبوي والمديح السلطاني.

نستطيع أن نقول بأن المنطلق الأول والموضوع الأساسي في المولديات النبوية وبغض النظر عن مشاعر الشوق والحنين هو حضرة المصطفى ووقوف الشاعر مادحا منبهرا بما حباه الله من صفات خلقية وخلقية والمعجزات وكذا الغزوات والسيرة وطلب الشفاعة والعفو والمغفرة من الله والتوسل؛ فالشاعر وهو يلقي مولديته يهتم بهذا الجانب المهم في بناء القصيدة، ولكن ونحن نعيد قراءة المدحتين تكشفت لنا ملاحظة ربما لها تعلق بما رأيناه سابقا في مسألة البدء بإلقاء المدحة النبوية.

فما يلاحظ على مدحة أبي حمو موسى الزياني أنها لم تتوفر على أبيات تتضمن المديح النبوي بالقدر الذي وجدناه في شوقه للديار المقدسة، وهو يبوح بمكنونه ومنية لقائه بالحبيب، ولكن لا توجد إشارة مدحية إلا ما ظهر في البيت التاسع والعشرين وهو يرجو الشفاعة بعدما أقرّ أنه مقصر وذنوبه كثيرات؛ حيث وصف الرسول أنه خير من أتى بالهدى ثم انتقل إلى مولده مسألة المولد النبوي وهذا ما ظهر في بيت واحد في قوله، وكل جاء في اطار تصويره لشوقه:

وما أرتجي إلا شفـاعة خير مــن ** أتى بالهدى يهـــدي بدين حنيـفي
به يرتجي العاصون غفران ذنبــهم ** وما عملوا في الدهر من عمل سي
بمولــده قــد أشـــرق الكون كلّـه ** وكـــل سنى شمس وبـــدر ودري[1]

وموضوع الشفاعة من النقاط التي يتطرق لها الشاعر في مدحه للنبي على أساس أنها تطلب من حضرته والنص القرآني والحديث النبوي الشريف تؤكد هاته الحقيقة لسيد المرسلين عليه الصلاة والسلام؛ فالشاعر وهو يمدح الرسول يقرّ بذنوبه وتقصيره ويطلب منه الشفاعة، والشاعر لا يريد شيئا إلا شفاعة الرسول "وما أرتجي إلا شفاعة..."، وهو طلب العاصي من يرتجي المغفرة لذنبه، وحتى الناس أجمعين فهم يطلبون ذلك في دعواتهم لربهم، وهنا الشاعر في حاجة لصنف الطلبيات بمعنى أطلب الشفاعة مؤثرا على المتلقي ليطلب هو كذلك هذا الطلب.

ففعل القول هنا هو الشفاعة والشاعر يرجوها، **والفعل الإنجازي** الالتماس والتوسط، **والفعل التأثيري** حمل المتلقي أن يطلب الشفاعة من خير من أتى بالهدى، **وردة الفعل** أن الحضور يطلب ذلك.

1- المصدر نفسه، ص 167.

ومردّ اقتصاره على الشفاعة في مدح المصطفى دائما أنّ الشاعر كان يفتتح ويترك المجال لغيره، والدليل على ذلك ما سنراه مع الثغري وهو يستفيض في مديحه للنبي وهنا نقف عند أمرين مهمين في ميميته وبغض النظر عن موضوع الاشتياق وغيرها من المواضيع، فإن مولديته تميزت بالإضافة إلى المقدمة استفاضته في مدح النبي ثم مدح آخر للسلطان أبي حمو موسى الزياني وهذا جديده وجديد المولودية في هذا العصر، فالشاعر وهو يلقي يرفق مدحه للنبي بمدح السلطان ليس مبالغة ولكن رآه أهلا لذلك فهو من قام على التحضير له والاهتمام به وبذلك يستحق المدح، وهو الأمر الذي يبرر لنا طول قصيدته مقارنة بمدحة السلطان، وفي هذه النقطة سنتبين الأفعال الكلامية وطرق إنجازها والتأثير على المتلقي من خلال هاته الأبيات.

أ- المديح النبوي:

فمن البيت الحادي والعشرين إلى البيت الخامس والخمسين كلّها وصف لصفات الرسول الخُلقية والخِلقية معجزاته وسيرته، ويأتي صنف التقريريات مظهرا تقصيره ومدى زلاته طالبا بذلك العفو من الله:

يتنـــزل الـــروح الأميـن به علــى	**	خيــر الــورى صلــوا عليـه وسلموا
شمس الرســالة والنبـــوة والهـــدى	**	بـــدر الجـــلالة نـورها المتجســم
هو رحمــة الله التـــي يهمــــي بــها	**	في الخلق بالحــق المبيــن ويحكــم[1]

وما يلفت النظر في مدح الثعري أن في بدايات أبياته المدحية للرسول صلى الله عليه وسلم، قام بطلب وهو الصلاة على النبي :"صلوا عليه وسلّموا"، هو يطلب من الجمع المستمع أن يصلوا على الرسول ويسلموا؛ والصلاة على الرسول من أهم الخصائص التي عرفت في المديح النبوي، ومن المواضيع التي وردت في القرآن والسنة النبوية(الصلاة والتسليم على الرسول) مثل قوله تعالى :﴿إنّ الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيّها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليما﴾[2]، وهي نقطة مهمة من الناحية التداولية؛ ففيها تتجسد أفعال الأقوال والإنجازات والغاية التأثيرية وردت الفعل.

1- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص171.

2- سورة الأحزاب، الآية 56.

فعل القول ← (صلّوا- سلّموا) فعل الإنجاز ← (التعظيم) فعل التأثير (تفاعل الجمهور- ترديد التصلية والتسليم).

ومن وراء هذا الفعل نلتمس مقصد الشاعر أنه يمتثل للنصوص التي أمرت أن نصلي على الرسول صلى الله عليه وسلم، ويذكر المسلمين في الحفل وغيرهم بوجوب أمر الصلاة وهذه ميزة تميز بها شعراء المديح النبوي.

ب- مدح السلطان أبي حمو موسى الزياني:

أما ما تبقى من الأبيات فقد خصّصه الشاعر لمدح السلطان أبي حمو موسى الزيّاني وحتى يربط الأبيات ببعضها البعض، وهو يدعو الله أن يعفو عنه ذنوبه، ثم يليه بدعاء آخر يخصُّ الخليفة أنه تقي، كريم، معطاء، متواضع، قائم بشؤون الخلافة والبلاد عادل مدافع عن بلاده وأهله، شجاع، مقدام، له جيشه القوى الذي يرد على الأعداء، وهذا ما جاء من البيت السادس والخمسين إلى آخر الأبيات:

يا ربّ عفوا عن ذنوبي كلها ** عفوا تمن به علي وتنعم

وانصر خليفتك الذي لبس التقى ** حللا تطرّز بالثناء وترقم

وأقام ليلة مولد الهادي الذي ** يزهو به الدين الحنيف القيم

ملك تقرّ له الملوك بأنه ** بالدين أقوى والخلافة أقوم[1]

وكما رأينا من قبل أن ما ميّز المديح النبوي في ليلة المولد أن الشاعر يمدح السلطان ويأتي «مباشرة بعد الانتهاء من المديح ليؤكد على أن خصال السلطان الحميدة وكريم مزاياه مستمدة من أخلاق رسول الأمة»[2]، ويكفي أنه اعتنى بالاحتفال النبوي أيما اعتناء فهذا يدل على تمسكه بالدين ومحاولة نشره وإبعاده عن كل ما يهدد استقراره في المجتمع وهذا ما أكّده في أبياته؛ وهذا ما عرف على الزيانيين في مدائحهم أنهم يتمتعون بتلك القيم والصفات الحسنة التي عرفت عند السلطان، فيعمل بذلك على كشف تلك المعالم والمكانة في شخصيته وهو عالم بمبادئ المديح التي تقف عند الفضائل الأربعة في الممدوح وهي العقل والعفة والعدل والشجاعة.

وفي آخر الأبيات وبعد المدح الذي شمل صفاته قد رآه أنه أهل للمولد النبوي الشريف لأنه القائم عليه فيطلب منه أن يرتاح ويهنأ بموسم مولد الرسول لأنه نعم المولد:

1- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص174.

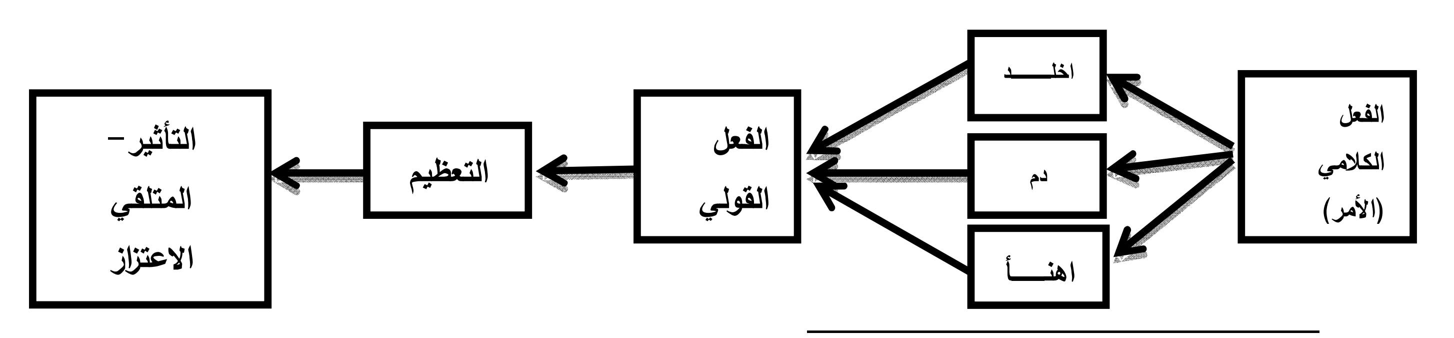
2- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص157.

دامت عـلاك لهـم ودام بمدحكم ** طيـر السعـادة دائمـا يتـرنم
وإليـك مـن بـدع البيـان بديعة ** قـد حلّ فيها السّحر وهو محرم
روض مـن الآداب جيد بجودكم ** فغـدت لكـم أزهـاره تتبسـم
فاخلـد ودم واهنـأ بموسـم مولـد ** لمحمـد الهـادي فنعـم الموسـم[1]

أما في البيت الأخير فنراه أكثر تخصيصا للسلطان حيث يوجه له طلبا متمثلا في الأمر "التوجيهات"، ونبحث عن مقصد الشاعر من ورائه، فتوجيه الثغري للسلطان له مقاصد كثيرة بصيغة الأمر "فاخلد ودم واهنأ"، وكأنه يذكرنا بأبي تمام لما مدح المعتصم في فتح عمورية في آخر أبياته، فيقول:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ** تنال إلا على جسر من التعب[2]

هو يقرّ له بأحقية الراحة والخلود والديمومة على اعتبار أنك قمت بواجب المسؤولية واعتبرتها تكليفا لا تشريفا، قمت بواجب الدين وأمن البلاد وخدمة لأمور السياسة والرعية في استقرارها ودفع العدو عنها، هو أراد أن يبلّغه مقصده فاستعان بأسلوب التوجيه والطلب" الأمر" كاستيراتيجية تخاطبية بلّغت مقاصده يبتغي من ورائها أن افتخر أيها السلطان واشعر بالاعتزاز لأنك فعلت ما يجعلك كذلك.



1- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، ص178.
2- أبوتمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح: د.محمد عبده عزام، مج(1)، دار المعارف للطباعة والنشر، ط(1)، (د،ت)، ص73.

وبالنسبة للمديح سواء المدح النبوي أو المدح السلطاني، فإن صنف التقريريات طاغ عليه أساس أن الشاعر يصف مكارم الأخلاق والصفات، وبهذا تتحقق مقاصده في تقرير حقيقة كلّ من الممدوحين حتى يتسنى للمستمع أن يتبين هاته الحقيقة، وعليه فكما رأى الأستاذ أحمد موساوي أن المولديات في العهد الزياني كان لها ارتباط بالجانب الديني والأمور المقدسة ما حقق لها موقعا حسنا لذى المتلقي على اعتبار أن الأمر متعلق بدينه، فلا بدّ له من أن يهتم أكثر لأنها متعلقة بعواطف صادقة تعلوها نفحة ايمانية دينية تعمل على إثارة النفس الإنسانية للمسلمين خاصة وأنها تمس واقعهم وقضاياهم وهمومهم، كما أن الموضوع مرتبط بمدح الرسول كقدوة، ومدح السلطان في محاولة للاقتداء والكشف عن تلك الأعمال الإنجازات التي تدل على محافظته لمبادئ الدين الإسلامي[1].

خاتمة

ونحن نتبين أمر المولدية الزيانية في تلك الأجواء الاحتفالية المفعمة بالروحانية والتي تبتغي تذكير الناس وتغيير الأوضاع والأحوال، تجدنا ومن خلال القراءة النقدية التداولية لها نتكشف:

1- أن هناك سياقا عاما وشاملا دينيا واجتماعيا في العهد الزياني حمّل الشاعر أن يجسد اللغة لصالح واقعه ويتعامل معها بطرق متعددات حتى يفصح عن مقاصده الإصلاحية والتغييرية.

2- هناك سياق آخر ديني خدم السياق الأعم والأكبر وهو ما وفّر الظروف الكاملة حتى تدلي التداولية بدلوها، الجو الاحتفالي الذي عمل في أبي حمو موسى الزياني على توفير كل مظاهر ومعطيات وشروط النجاح التداولي المتمثل في المقصدية والتلقي والطرق التخاطبية التي بينت أن هنا استراتيجية شعرية جسدت التجربة الشعرية الجماعية لشعراء الاحتفال بالمولد النبوي بما فيهم الشاعر السلطان، وهي توضح الطرق التخاطبية من اجل راحة المتلقي الانفعالية والانسجامية والتأثيرية، وبالتالي المساهمة في التغيير.

3- لا مجال لإبراز أوجه التشابه والاختلاف بين مولديتي الشاعرين إنّما هناك تواصل وتخطيط على الاستمرارية والبناء والسيرورة الابداعية لإنجاح الحفل طيلة الليلة وطيلة الشهر ولإبقاء المستمع المتلقي مستمتعا لا يملّ ولا يكلّ؛ فالوجهة واحدة والطرق تختلف حسب المقام

---

1 – ينظر أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص163.

والسياقات والظروف، وهذا الاختلاف لإبعاد الملل والتأفف وربما الرفض من قبل المتلقي، لأنهم أمام مهمة تبليغ وإقناع لأن الأمر متعلق بصلاحهم وصلاح البلاد.

4- تألقت المولدية في ظلال وتحت كنف الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وتجسدت مظاهر جماليتها التبليغية والإلقائية وكذا التقبلية من خلال تلك التقاليد التي عرف بها الاحتفال.

5- تميزت المولديات بظروف إبداعية خاصة، تجعل التداولية تقول الكثير وتكشف عن أسرار جمالياتها، وهذا ما يفتح باب الاجتهاد الإجرائي النقدي للزيادة في الكشف عن تلك السمات فهناك ما يقال.

رابعا: المصادر والمراجع:

1. أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم، عهد تلمسان الزيانية، موفم للنشر، الجزائر2008، (د،ط).
2. أبوتمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح: د.محمد عبده عزام، مج(1)، دار المعارف للطباعة والنشر، ط(1)، (د،ت).
3. زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، مصر الجديدة 1354هـ- 1935م، (د، ط)، ص17.
4. شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا- ابراهيم الأبياري- عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358هـ – 1939م، (د، ت).
5. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة، بيروت لبنان، سنة1400هـ- 1980م، ط(2).
6. عمر بلخير، مقالات في التداولية والخطاب، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، (د،ط)، (د،ت).
7. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج(1)، دار الحديث القاهرة، سنة 1427هـ- 2006م.
8. محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، تح محمود بو عياد، منشورات، موفم للنشر والتوزيع، (د.ط)، 2011.
9. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية،(د،ط)، سنة 2002.
10. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة بيروت، (د،ط)، (د،ت).

خامسا: المجلات والدوريات:

1. عبد الحليم بن عيسى مقال(النص التراثي وآليات قراءته التداولية، نقد النثر لقدامة بن جعفر نموذجا)، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات وخدمات التعليمية، جوان2009م-1430هـ، ص 44.

سادسا: الرسائل الجامعية:

1. سامية شودار، الخطاب الشعري في أطلس المعجزات لصالح خرفي دراسة تداولية، مذكرة مقدمة لشهادة الماجيستير، 2013- 2014، جامعة بسكرة.

سابعا: المواقع الالكترونية:

2. موقع ديوان العرب:www.diwanalarab.com/spip.php§article680

ثامنا: الملاحق:

- القصيدتان في كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان لصاحبه محمد بن عبد الله التنسي، تح محمود بو عياد، منشورات، موفم للنشر والتوزيع، (د.ط)، 2011. الصفحات: 164-168(مولديات أبي حمو الزياني)، والصفحات169-178(مولدية الثغري).